هذا الكتاب

إنك لتعشق الحقّ مثلما تعشق الجمال..

وإنّه ليؤلمك أن ترى الحق مذ كان قديماً ولم يزل صعب المنال..

إنّ الأحرار يثنّون معك وهم يرون هذا جارياً حواليهم في شتّى الأحداث والأشياء..

لقد عزّ عليك قديماً أن ترى حقل أقحوانٍ لم تنبتّ فيه إبرُ الشوك اليابسة والخضراء..

ويحزّ في قلبك أن هذا المعنى الأليم هو من أوّل ما يدركُهُ أخوك الإنسان!

وكذا هي حالك مع الكاتبين..

فكم تشوّقتَ لأن يأخذوك إلى بطون الحقيقة، فتقضي مع بعضهم الشوط الطويل وهو يُدحرج بين يديك كرةً سوداء صمّاء على مسارٍ ملتوٍ، وأنت تتبعها لا تدري إلى أين، ولا متى سيشقّ لك عن تلك القشرة الصمّاء فَيُريك ما تُخفيه!

وتمضي جاهداً تنتظر نهاية المطاف فلا تشعر إلّا وقد ارتطمت تلك الكرة السوداء بجدار صلب سميك، فارتطمتَ أنت معها، أو رجعت القهقرى مُنهَك القوى متعب الأعصاب، تتقطّر وجنتاك بالسخط واليأس والقنوط!

سطحيّون ما زلنا نتلهّى بالقُشور!

فكم تمنّيتُ مثلك أن أجني ثمار وقت ثمين أنفقتُه مع هذا وذاك فيذهب سدىً على دوائر مفرغة وحافّات ضياع، فأعود أرِقاً متعب العينين، فأُعزّي نفسي بأمواج تُدافع السواحلَ مذ خلق الله أرضنا، وهذا ديدَنُها حتّى تُبدّلَ الأرض غير الأرض، لا تكلّ ولا تملّ ! ثمّ أُحلّق بخيالي إلى عظماء بنوا لبني الإنسان مجداً وحضارةً وتراثاً لا ينضبُ مَعينُهُ، فيتّسع الأملُ في عيني من جديد.

قرأتُ التاريخ فوجدتُه منكوساً على رأسه في أكثر فصوله، ولسبب بسيط، هو أنّ ما كُتب إنّما كُتب تحت رايات السلطان على مرّ الزمان، فما أزعج منه السلطان ضاع واندرس فلا تجد له أثراً إلّا في فهارس المؤلّفات، وإن نجا منه شيء تصدّى له الأقوياء بالسلطان على الدوام بسهام الطعن والتكذيب، فمن هنا تفجّرت بين جنبيّ عزمةٌ تائر على أن أُساهم في إخراج الصورة الحقّة لأوّل أُسّ في هذا البناء التاريخيّ الشامخ، ذاك أملٌ سأفرغ له بإذن الله..

أمّا هنا في هذا الكتاب فقد قرأتُ رجلاً في عقيدة، وعقيدةً في رجل.. هو ابن تيميّة.

قرأت شيئاً ممّا كتبوه فيه وفي عقيدته فلم أجد غير تلك الكرة السوداء يدحرجونها أمامي هنا وهناك.. فألقيتُها جانباً وتناولت ما بلغته يدي ممّا كتبه الرجل عن نفسه وعن عقيدته، فوقفتُ على البون الشاسع والزيف المريع.

سطحيّون أو بسطاء غلبتهم سلامة الصدور فدهش ناظرهم للمنطاد المنفوخ الطائر، يحسبُ سرّاً عجيباً في جوفه رفعه إلى قُبّة السماء.. لكنّه هواء !!.

هكذا تعاملوا مع الرجل.. طفقوا يكتبون عنه، وله، وفيه، فوضعوا أكفّهم على فيه، فألجموه ونطقوا، بأيّ شيء نطقوا ؟ بتلك الكرة الحائرة !

ارفعوا أيديكم عن فيه.. دعوه ينطق، دعوه يُفصح عمّا يريد، دعوه يكشف عن لباب قلبه، دعوه يقل ما يريد كما يريد لا كما تريدون.

فحملتُ على تلك الأكفّ فكففتُها عن فيه، فنطق بلسانه لا بألسنتهم.. ورفعتُ الأغلال عن يديه فرسم جوهر عقيدته بريشته هو، لا بريشة عشّاقه، ولا بريشة حسّاده.

ولكن ما أصعب الحديث في بطون الحقيقة، وما أقسى ردود الفعل التي سيحدثها.. وعجباً له كيف سيشقّ طريقه بعكس اتّجاه ذاك التيّار الهادر، ومن سيرتضيه إلّا المتعطّش لِلُبّ!

لقد دعونا ابن تيميّة، فعرّفناه لمن لم يعرفه، وعرّفنا بأجوائه كلّها من حيث الزمان والمكان، ثمّ تكلّم هو عن نفسه شيئاً ليعرفَ القارئُ صوتَه ونبراته، ثمّ انتقلنا معه إلى لباب عقائده ولم نقف عند القشور، ذهبنا إلى الصورة الكاملة ولم نقف عند الإطار نعظّمه ونمجّده، أو نعيبه ونبخسه نضارته، وأعرضنا عن كثيرٍ من التفصيل الذي يتشابه في معناه ويتّفق في مغزاه، حرصاً على لمّ أطراف تلك الصورة الممتدّة الواسعة بما لا يُضيع شيئاً من معالمها.

وأهمّ ما في الكتاب أنّ الرجل هو الذي تكلّم عن نفسه وعن لباب عقائده، لا عشّاقه ولا حسّاده..

فجاء هذا الكتاب ليمثّل الفصل الأخير في ما كُتب في موضوعه..

إنّه الحلقة المفقودة في تاريخ عقيدة، وفي حقيقة رجل.

صائب عبدالحميد